الفصل العاشر
في الفوائد المخصوصة بالذكر والفكر

واعلم بأن التفكر في الأسماء والصفات المخصوصة بحضرة الله تعالى والاطلاع على حقائقها بقدر الوسع من أعظم الأمور لما فيها من الفوائد ما لا يمكن إحصاؤه، وكيف لا وقد كان الاطلاع على تلك الحقائق ذريعة إلى التخلق بأخلاق الله تعالى، وفيه كمال العبد وسعادته، ولا يظن بأن الذي ليس له حظ من أسماء الله تعالى وصفاته إلا أن يسمع الألفاظ الدالة عليها ويفهم بحسب اللغة تفسيرها، ويعتقد بالقلب حصول تلك المعاني لله ﷻ ، فإنه في هذه الدرجة إذ هو نازل عنها.

فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع، وهذه الرتبة مما يشارك فيها البهائم، والفهم بحسب اللغة لا يستدعي إلا معرفة العربية، فإنه مما يشارك فيه البدوي الجلف والأطفال، فحصول تلك المعاني لا يستدعي إلا تصور تلك المعاني والتصديق بها، وأنه مما يشارك فيه العامي بل الصبي.

وإنه إذا ألقي إليه شيء من هذه المعاني تلقاها واعتقدها، فهذه من الدرجات ما يكون فيها أكثر العلماء، ولا يخفى فضل هؤلاء بالنسبة إلى من لا يشاركهم في هذه الدرجات، لكنهم في الدرجة النازلة بالنسبة إلى من كان في الدرجة التي هي ذروة الكمال، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، بل الحظوظ من المقربين من أسماء الله تعالى وصفاته ثلاثة:

الأول: معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتضح

لهم حقائقها بالبرهان إيضاحاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان.

الثاني: أن استعظام ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من ذلك شوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات، ليقربوا من الحق سبحانه قرباً بالصفة لا بالمكان، ولا يمكن أن يتحقق في قلبه استعظام صفة إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة، وعشق لذلك الجمال، وحرص على التحلي بذلك الوصف على حسب الطاقة.

ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خالياً بقلبه عن إرادة ما سوى الله ﷻ، فإن المعرفة بذر الشوق، ولكن مهما صادف قلباً خالياً عن سبخة الشهوات، وإلا لم يكن البذر منجحاً.

الثالث: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربانياً رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب.

فإن قلت: طلب القرب من الله تعالى أمر غامض يكاد تشمئز القلوب عن قبوله.

قلت: لا يخفى عليك وعلى من تزعزع قليلاً من درجة العوام أن الكامل أشرف من الناقص، ولما كانت الدرجات في الكمال متفاوتة، كان من اللوازم أن يقتصر منتهى الكمال على واحد حتى لم يكن الكمال المطلق إلا له، ومن المعلوم أن الأكمل من الغير أقرب إليه لا محالة، ثم الموجود منقسم إلى الحي وغيره، والحي أشرف من غيره، وله ثلاث درجات:

درجة الملائكة وهي الأعلى، لما أن الملائكة مقدسة عن كدورة الشهوة والغضب، أنسهم بذكر الله ﷻ، وفرحهم بطاعته فما يدعوهم إلى الفعل، فذلك طلب القربة إلى الحضرة الربوبية.

ودرجة الأناسي وهي المتوسطة بين درجتي الملائكة والبهائم، فالإنسان

فيه إذن قوة ملكية وقوة بهيمية، والأغلب في بداية أمره البهيمية لاستيلاء الشهوة والغضب عليه، إلى أن تظهر فيه الرغبة إلى طلب الكمال والنظر في العاقبة والميل إلى الرياضة وهي قهر النفس الأمارة بالسوء، فيملك الشهوة والغضب، بل يصير شبيهاً بالملائكة في أفعاله.

ودرجة البهائم وهي الأسفل بالنسبة، فإن إدراك البهيمة ناقص يقتصر على الحواس وذلك بتوسط المساس أو بقرب منه.

ثم الإنسان إذا تخلق بأخلاق الله تعالى كان من جملة المقربين إلى الحضرة، ولا تظن بأنه في هذه الحالة يعرف الله تعالى حق معرفته، فإن ذلك لا يمكن لأحد لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل لا يعرف الله إلا الله.

فلو قال واحد: لا أعرف الله تعالى كان صادقاً.

ولو قال: لا أعرف إلا الله تعالى كان صادقاً أيضاً على اختلاف الجهتين.

وذلك لأن من نظر إلى هذا العالم المنظوم المحكم المشتمل على أنواع الغرائب والعجائب علم بأنه يتعلق بالغير ويفتقر إليه، إذ مثل هذه الصنعة لا يمكن إلا من صانع حكيم يعلم حقائق الأشياء ودقائقها، ويقدر على الكل قدرة تامة كاملة.

وهذا هو العلم بحسب الصفات لا بحسب الذات، ولا يلزم من حصل هذا حصول ذلك أصلاً، ولهذا قيل: إنه عالم قادر في جواب (ما هو؟) لا يكون جواباً عنه.

فإن قلت: فما الطريق إلى معرفة تعالى؟

قلت: الطرق كلها مسدودة إلا واحداً منها، وذلك طريق قاصر أشار إليه النبي ﷺ بقوله: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**[1].

(1) قال العجلوني في كشف الخفا (2/ 343): قال النووي: ليس بثابت، لا يعرف مرفوعاً.

وذلك لأنك إذا نظرت إلى نفسك وعلمت بأن لها من العلم والقدرة، مثلاً: فلو سمعت في وصفه تعالى بأنه عالم قادر فهمت فهماً قاصراً، لما أن علم الخلق وقدرتهم أبعد من علم الله تعالى وقدرته، وكيف أبعد؟!

فإذن الفهم بحسب ما يناسب ويشارك في الاسم من الأوصاف لا بحسب ما يكون في الحقيقة من علمه وقدرته تعالى وتقدس، ولو كان كذلك لكان من المحال أن يعرف الله تعالى بالحقيقة إلا الله تعالى، بل من المحال أن يعرف النبي إلا النبي ﷺ.

فإن قلت: فماذا نهاية العارفين بالله تعالى؟

قلت: معرفتهم عجزهم عن المعرفة، وذلك بمعرفتهم أنه لا يمكنهم معرفته ألبتة، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافاً تاماً برهانياً، فقد بلغوا في المعرفة إلى ما يمكن في حق الخلق من معرفته تعالى، وذلك هو النهاية، وقد أشار إليه الصديق رضي الله عنه، حيث قال: العجز عن درك الإدراك إدراك[1].

ولما علمت أن معرفته تعالى لا يمكن إلا بحسب الصفات، فقد علمت بأن التفاوت في درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفته على حسب التفاوت في معرفة الصفات، ولهم من الأمثلة في معرفة الخلائق بعضهم بعضاً.

فإن قلت: إذا لم يعرفوا حقيقة الذات فهل يمكنهم معرفة الصفات معرفة تامة؟

قلت: هيهات. ذلك لا يعرفها بالحقيقة إلا هو تعالى وتقدس، وقد مر من قبل ما يدل عليه، ولأنه لا يعرف حقيقة علمه تعالى إلا من له مثل علمه،

(1) قال السيوطي في شرحه على النسائي (1/ 103): وقال بعض العارفين: سبحان من رضي في معرفته بالعجز عن معرفته.

وليس ذلك إلا له ﷻ ، فإذن لا يعرفه سواه، نعم مهما ازدادت الإحاطة بعجائب صنعه تعالى وتقدس كان الحظ من المعرفة أوفر، وإلى هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين.

obeikandl.com